الفصحى ضرورة العصر

د. عز الدين البدوي النجار

كاد الإعلام يكون لغة العصر، على اختلاف صور هذا الإعلام ووسائله، تُبِيْن به المجتمعات الإنسانية عن ذواتها المتحضرة بيانها الشامل، وتتراسل به تراسلها الخفي والجلي، وتصنع به على مَهَلٍ، بدقيق الصنع، جوانب فساحاً من آفاقها المنظورة المأمولة.

وفي بلاد العرب، وبالقياس إلى العربي المتطلع في عصر العلم إلى المعاصرة، المُتشوّفِ إلى أن يكون له بين أمم الحضارة موضعٌ يشاكل طاقاته المكنونة = فإن الفصحى هي لغةُ هذه اللغة، من وجهيها المقروء والمسموع؛ ضرورة قاهرة ليس في الوسع غيرُها، تمليها المقدمات كلها، وتدفع إليها أحوال العصر، وما استحدثته علومه من وسائل اتصال مدهشة، استحال معها المعمور الإنساني إلى قرية صغيرة لها حجمُ كوكب.

هذه هي الدعوى التي ندعيها، والقضية التي ندير عليها كلمتنا هذه. وهي من البداهة فيما نرى بحيث يجدها في قلبه وجداناً غامراً كل ممارسٍ حَقٍّ لظواهرِ علم، أيِّ علم، فضلاً عن دقائقه وسرائره، وكلُّ مؤدٍ إلى العامة، فضلاً عن الخاصة، أداء يرتفع عن مطالبها المحدودة الهينة، ليرتفع بها إلى ما ينبغي لها في معترك العصر، وفيما يثير إليه جسيم تحدياته.

● ومن أجل هذا فإن كلامنا هنا لن يكون إلا إشارة ولمحاً، وتناولاً للأمر من أطرافه العليا، وحسبنا إذن أن نقرر ــ في صعيد واحد ــ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعاني الأصول التي يأتلف منها وجه القضية الجامع؛ وهي تتعرف بنفسها من بعد إلى متلقيها العالم العارف، أو العامِّ الجادّ الفَهِم، إذ كانت لا تخرج عما أَجَنَّهُ كلا ضميري الرجلين، أو كان منهما، في نمطي حياتهما، بمرأى ومسمع. ولم نَعْدُ أن تكلفنا العبارةَ عنه، بعد جمعه وترتيبه، بعبارة كليلة أو نافذة.

● ومن أجل أن الكلام كله في هذا المقام يترامى إلى الفصحى المبينة، إذ كان العمل من أجلها هو لباب عمل المجامع العربية وغرضها الأجَلّ، ومن وراء ذلك جمهور الأمة الذي من أجله أنشئت هذه المجامع = فإن العامية ـ وهي داء الفصحى وقرينها غير المنظور ـ لا تزال تتلامح من وراء الأستار، تومئ إلى نفسها،وتُدِلُّ باتساع رقعتها وعظيم سلطانها، وتتلَفَّفُ بضروب من القدرة المستعارة، تتزين بها لكل غافل عنها مُغْتَرٍّ بها، كالحرب التي قال في صفتها الأولُ قوله العجيب المشهور:

الحربُ أولَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ ... تسعى بزينتها لكلِّ جَهُولِ
حتى إذا استعرتْ وشبَّ ضرامُها ... عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاءَ جزتْ رأسَها وتنكّرَتْ ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

فمن أجل هذا ألمنا بالعامية إلمامة خاطفة، وأنزلناها في منزلتها التي نراها لها، مجردةً من سلطان الإلف، ومردودة إلى موضعها من تاريخ اللغة والاجتماع.

● وهو غني عن البيان أنا لا نريد بالعامية وأصحاب العامية ما عليه سواد الناس في المجتمع العربي لقرون كثيرة خلت، منذ بدأت الفصحى تتفكك على ألسنة الناس، وضَعُفَت الطبائع المحدثة عن أن تنهض بحق العربية كلاماً منطوقاً محكماً حياً، يستجيب لمطالب الحياة كلها، دقيقها وجليلها، باقتدار شامل مطبوع.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا نحسب أحداً من أهل هذا اللسان العربي، في زماننا هذا على الأقل، يزعم لنفسه القدرة على البيان بالعربية الصحيحة سليقة وطبعاً لا تكلفاً واكتساباً. ولا يكاد يَبرأ كلامٌ، أجودُ كلام، من أن تجد فيه المَغَامزَ الخفية، إذا أنت أنعمت فيه النظر، وأعطيته حقَّهُ من التأمل، حتى لو كان من كلام أصح الناس طبعاً، وأنفذهم في أساليب البيان خاطراً. فلسنا نريد هذا إذن، ولا ننعاه على رجل قط، إذ كنا كلنا ذلك الرجل.

● ولا ندفع أيضاً أن يُبِيْنَ بالعامية عن نفسه من لا يستطيع للحظته، غيرها؛ ولعله لا يعرف أن في أساليب البيان أنصعَ ولا أتَّم بياناً منها، فإن هذا لا يقول به قائل به ذَرْوٌ من عقل، ولا نراه ينهض لسماجة داعٍ إلى العامية في عصر العلم إلا متقعرٌ بما يعده عربيةً في أوساط العوام والأغمار، مطالبٌ لهم بها.

● وإنما هو الفرق الساطع المبين تتزايل به صورة من صورة، ويمتاز وضع من وضع:

ـ بين واقع لغوي يضطرب فيه السواد الأعظم ميراثاً من مواريث التخلف والوهن، يعتقل من قوى الأنفس غير قليل، ويستبد بها أن تأخذ، بأتم أدواتها، في طرق الإبداع، في كل علم أو أدب أو فن تقع الكلمة منه موقعها المثمر الحي. إلا أنها ـ أعني هذه الأنفس ـ لصدق تشوفها إلى أشرف أحوالها، إذا قَدَرت على أن تَبْرأ منه فارقته غير آسفة عليه، وجعلته تاريخاً من تاريخها، فلم تلتفت إليه إلا التفات الدارس المعتبر =

= وداعٍ مُلْحفٍ إلى توكيد هذا الواقع وتأبيده، وصرف الناس عن كل ما سواه.

وإنما هو الفرق إذن بين اضطرارٍ عارضٍ إلى العامية بظروف هذا الاضطرار وحدوده، ودعاءٍ مُلْحِفٍ إليها، إن أنت رفعت عنه حُجُبَ الألفاظِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتمويهها لم تجد تحته إلا رفضاً بحتاً للفصحى، لا يتوجه معك، ولو جهدت، في طريق من طرق العلم أو الواقع أو التاريخ.

ونحن نسجل للتاريخ هنا أن العربية قد رجعت في سورية إلى موئل مكين، واستقرت لها في أفئدة أبنائها منزلةٌ غايةٌ في الجلالة، لا يزال المرء في آثارها حيث قلّب طَرْفَهُ منذ مطالع النهضة الحديثة. وأنت مرتقٍ في هذه الآثار من حقيقة أن مجمع دمشق هو أول المجامع العربية إنشاءً، إلى ملاحظة الحقيقة البادهة الجليلة المغزى، النبيلة الوقع في الأنفس: أن الفصحى هي لغة رئيس البلاد، حفظه الله وأمتع به، في أحاديثه المرتجلة كلها. وحسبك بهذا شاهداً في مشاكلة جلالة البيان لجلالة المقام.

وأنت من بعد، في سورية، مع الفصحى في أجهزة الإعلام كلها، بها تُقبل سورية بوجهها العربي الجليل على بلاد العرب، وعلى العالم أجمع[1].

طرف من القول في العامية:

لا نغمس القلم في الموازنة بين العامية والفصحى أداتين للبيان الكامل، يجفو إحداهما امرؤ ويقبل على الأخرى، فإنه ضرب من العبث، وامتهان لجوهر العقل، واستهلاك للقوى في غير شيء.

وما ينبعث داعياً إلى العامية أو يستكين قابلاً لها إلا رجل أغفل قلبَهُ الهوى، أو منقوصُ الأداةِ حَيَّره العجز، أو مسلوبُ الإحساس بالانتماء فما يبالي ما صنع ولا أين يتوجه.

وحسبك فيها أن الدعاة إليها يدعون إليها بالفصحى! قالوا: ماتت

---

(١) للعربية في تاريخ سورية الحديث تاريخ غاية في الجلالة، وحسبك أنها عرّبت التعليم العلمي العالي منذ أوائل القرن في ظرف تاريخي مكفهر. مأثرةٌ لاجرم تذكر، وميراثٌ نبيل يعتدّ به.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النوار امرأة الفرزدق فناحوا عليها بشعر جرير! فقل في مضاف إلى الاقتدار ليس بقادر، ومنسوب إلى الحياة أول خصاله عجزه عن أن يفي بمطالب الحياة.

وإنما هذا على إطلاق القول وإجماله، فإذا رجعت من عموم البيان إلى خصوصه، وأخذت في الكلام على لغة العلم، وعلى الذي لا ينتهي كثرة من مصطلحها، وما تغلغل به الفكر من دقائق تعبيرها = كانت المفارقة أكبر والسخرية أتم؛ ولا يركن إلى العامية هنا إلا مستغنٍ عنها بلغة من لغات العلم المتقدمة، شرقية أو غربية، استوفى بها من العلم حظَّه، وأحرز في مدارج الفكر كماله، ثم هو في عاميته من بعدُ ناعمٌ فاكهٌ مقيم.

وعلى أن العامية ليست لغة على حيالها، وليست هي بهذا الاعتبار خصماً للفصحى، ولا هي تعقل من أمرها قليلاً ولا كثيراً تناهض به ضَرَّتها المزعومة المفتراة، وإنما هم الداعون إليها، وإنما هو العجز أو الهوى كما تقدم، فبهما يطير الواحد منهم ويقع.

وهل العامية إلا مستوى من مستويات التعبير بالفصحى، أنبتته نحيزة مولدة واهنة، وأعان عليه اتساع رقعة الحضارة العربية، وما ذهب فيها طولاً وعرضاً من أجناس الشعوب والأمم؟ فتبلبلت الألسنة العربية، وانتقضت قوى الفصاحة التي كانت لها في الجاهلية وصدر الإسلام. ثم فشا ذلك واستمر، وأنس به من أصحاب الطبائع الصحيحة من كان إذا وقع في منطقه منه شيء قال: حَسْ! للذي يجد من لَذْعه في حلقه ومن حسرته في قلبه!

ثم تمكن ذلك، ودار في الطبائع المولدة دورة أخرى، وتناولته من هذه الطبائع مواهب مفطورة على الفن، فولَّدت فيه بفنيتها أوضاعاً فيها حيوية ورشاقة وجمال. وكثر ما كان من هذا الضرب، وترادفت من دونه الأيام، حتى صار عند من يتعاطاه ميراثاً يحرص عليه. وزين له ذلك ــ إلى عجزه عن غيره ـ أن هذا اللسان المولد لسان على حياله، يفي بحاجته في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحياة والفن جميعاً. وزاد فجعله له رأياً ومذهباً، وخَرِقَ بموضعه منه حتى أذهله عن أن من وراء حاجته المحدودة حاجات أمة، ومن وراء مَسَرَّتِهِ العارضة بفنية ما تهيأ له هموم هذه الأمة، وكبار مطامحها وآمالها. ودع عنك عوالم الفن العالية الأبعاد، الملحمية الرؤى والروح، يضيق عنها أن يستوعبها فنه المحدود.

وعلى أن من هؤلاء من يتوفر حظه من الفن، ويتمرد في قلبه ينبوع اللغة، ويدركه الشَّفَقُ المركوز في الطبائع الإنسانية على كل ذي شأن أن يَبيد، فيرجع إلى الفصيح يتعلق به، وإلى القصيد العربي يرجو به وحده الخلود. وهي غريبة من غرائب النوع الإنساني أنه إذا اصطرعت في النفس الواحدة شعبتان من الهوى أن تكون أدخلهما في باب الهوى الفَرْدِ أعودهما بالنفع على الجماعة!

وقد نجمت قريباً، في باب الإغراء بالعامية والتمكين لها، صور مستحدثة تُعْرِض باستهانة وصَلَفٍ عجيبين عن كل ما اكتسبته الأمة في مئة العام الأخيرة في باب استحياء اللغة خاصة، والانتفاع بها في مرافق الحياة كلها؛ تفوق فيه العرب المحدثون على أنفسهم، وضارعوا فيما وضعوه القرون الأوائل، بل ربما أربوا عليهم في بعضه، جمالاً وعذوبة وإتقاناً.

ولعلها غريبة أخرى من غرائب الباب أن يجيء ذلك على إبّان ما نعده نهضة لغوية ثانية، يستدير بها الزمان بين مفتتح القرن ومختتمه، ويستتم للناس من العلم باللغة في هذه بعض ما كان يعوزهم في تلك. ويسقط مع النهضتين وفيما بينهما لَغْوٌ كثير، كذلك الذي قاله جرير يَرْفِدُ به ذا الرمة فيما كان بينه وبين هشام المَرَئي:

يعد الناسبون إلى تميم ... بيوتَ المجد أربعةً كبارا

ويهلك بينها المَرَئي لَغْواً ... كما ألغيت في الديَةِ الحُوارا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

● وقد أرخينا من عنان القول في العامية شيئاً، تدريجاً إلى القول في الفصحى، واستبراء غاية في الإجمال لبيان ما يعرض من دونها من الغوائل، إذ كانت هي الآفة التي غلبت طوائف من الناس على ألسنتهم وقلوبهم، واستحالت، على حين غفلة، من علة عارضة محدودة بحدودها إلى مذهب في التفكير والتعبير يتقلده على بصيرة أقوام، ويخبط فيه آخرون؛ حتى أوهم ذلك ـ بكثرة الشغب فيه، وبالكسل الذي هو علة غالبة من خلال النفس الإنسانية ـ أن الداء مستحكم، وأن الأمة باقية في هذا المضطرب ترتطم فيه أخرى الدهر.

● ونحن نعرض عن هذا كله، ونعمد إلى ما صححه الواقع وأدى إليه النظر في هذه اللغة الشريفة وفي غيرها من لغات الأرض، على ما استقر في علوم اللغة، وارتفع إلى مرتبة الحقائق التي لا يجادلُ فيها إلا ذاهل أو مكابر.

ونلتفت إلى ما استحدثه العصر من منشآته العلمية ووسائل اتصاله المذهلة وإلى موقع اللغة مكتوبة أو منطوقة منها.

ونصل ذلك بالإعلام الموجه، وهو الإعلام المسؤول الذي تباشره الدول وفق حاجاتها الحيوية القريبة والبعيدة، متفقاً ما تصطنعه من أساليبه وصوره مع مجمل سياساتها القومية العليا.

ونصدر فيما أثبتنا في هذا المختصر وما لم نثبت عن أن للأمم حاجات كبرى تتنزل من وجودها التاريخي منزلة الضرورات، فهي الفيصل فيما يعرض لها من أحوال، إن هي استكانت لها أو أساغتها حيناً من دهرها لم يَسُغْ أن ترتكس فيها كل حين.

ونزعم ـ عند منقطع كلام ومستأنف كلام آخر، يقيناً وتفاؤلاً في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آن ـ أن العربية الفصحى لم تكن قط أقرب إلى قلوب الناس وألسنتهم، ولا هم عليها أقدر، منها اليوم.

فحوى الاضطرار ووجوهه:

نفينا فيما أقبلنا عليه من حديث آنفاً أن تكون العامية لغة على حيالها، وذهبنا إلى أنها التياث في الفصحى وانحلال وتفكك على ألسنة الناطقين بها، أجاءت إليه أحوال الاجتماع التي أظلت العرب والعربية ومن انتسب إليهما من الشعوب والأمم في تاريخ متقدم معروف. ثم فشا ذلك حتى رجع حالاً غالبة لا يكاد يبزأ منها أحد.

وعلى أنا لم نذكر من تهافت هذه العامية إلا جملاً وحسب، على جمالات كثيرة فيها ترجع إلى براعات المتحدثين بها لا إلى أنها نظام لغوي راقٍ يتولد منه بذاته ما لا ينتهي من صور التعبير ودقائقه.

وقد كان يمكن بطريق الجدل واستعمال الأقيسة أن يكون مجرد نفي العامية إقراراً للفصحى، من أجل أنه ليس في اليد غيرهما شيء يسوغ أن يأخذ فيه العربي إثباتاً أو نفياً دون أن يخرج من أصل انتسابه هو نفسه إلى العربية، إذ كان الخيار الثالث، وهو التعويل على لغة أو أكثر من اللغات غير العربية = انتحاراً قومياً، وحكماً بالموت يخرج به العرب والعربية من حلبة التاريخ.

غير أنا بنينا الكلام بناء آخر، التفتنا فيه إلى الحقائق المجردة نفسها، إذ كانت بذواتها أظهر من أن تخفى على أحد. ورجونا أن نقدم تصوراً عاماً لموقع اللغة من حياة العصر الذي نحن فيه خاصة. ثم نرتب على ذلك ما يترتب عليه، ونصله ببيان عمل الإعلام في موقعه البالغ الرهافة والخطر،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي يكاد يكون قسيم التعليم، من الوجه الذي نحن بسبيله في هذا المقام.

إلا أنا نقدم الكلام على ملمحين علميين كبيرين من أبرز ملامح العصر، تَصَوَّرَ العصرُ بصورتيهما الغلابتين الشديدتي الأسر، تَقَدّما، بسحريهما المختلفين، على كل شيء، وحملا، أو أحدُهما، على إعادة النظر في اللغة المستعملة في الحياة العربية المعاصرة، عنينا الحاسوب المترشح ليكون أداة عاملة أو لاهية في كل بيت، والفضائيات النافذة بفتونها إلى كل بيت.

وعلى أن بعض ذلك مُلْتَبسٌ ببعض، إذ كان جوهر القضية واحداً، ثم ينشعب منه ما لا يحد كثرة وتنوعاً، فربما أحوج المقام أن نرد أولاً على آخر أو آخراً على أول.

● أما الحاسوب فقد كسبت الفصحى فيه القضية من (أول جولة) واحتازته إلى جانبها بلا كثير صدام مع العامية ولا قليل. وذلك أن المبنى العلمي لهذه الأداة، ولكل أداة شبيهة، يملي قانون العلم على كل ما يكون منه بسبب. وبهذا الاعتبار كانت الفصحى بانضباطها لا العامية بتشعثها هي المقدمة ابتداءً لأن تكون لغة الحاسوب العربي في كل أرض عربية أو غير عربية، من جهة قواعدها الصرفية والنحوية والإملائية.

وقد كانت تجربة الحاسوب من جانبها اللغوي حكماً نافذ الكلمة في مسألة الفصحى والعامية؛ فما صلح أن يكون على الورق، بالشُّبَهِ كلها وبالإغراءات كلها، متلبساً بلبوس الحقيقة، لم يصلح أن يكون كذلك طَرْفَةَ عين في كل سياقِ علمٍ أو ما كان من العلم بسبيل.

وعلى أن استقرار العربية لغة للحاسوب إنما كان بعد جهد ناصب مبذول كثير، هذا مع انتظام العربية في ذاتها، وصلاحها من فورها لكل أداء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علمي رفيع، فانظر كيف تكون الحال لو أن صاحب وَجْدٍ بهذه العامية الشعثاء رام أن يستدخلها في هذا الحيز الضنك، وأن تجد الآلة بها وَجْدَه هو بها:

ومكلفُ (الأشياءِ) ضِدَّ طباعِها متطلبٌ في الماء جذوةَ نارِ

وإنما الرواية (الأيام) (ولكن الخطوب مغيرات) كما قال الشاعر القديم وكذلك سياقات الكلام.

وعلى أن العاميات، فوق هذا كله، عاميات كثيرة لا عامية واحدة، تجدها في المدينة الواحدة، فضلاً عن الإقليم الواحد، فضلاً عن بلاد العرب كلها. وإنما يفهم أصحاب العاميّات من بعضهم، حين يتم ذلك، بالذي فيها من العربية المشتركة لا بخصوصيات أوضاعها، فإن كان صدر صاحب اللغة ضيقاً بالعامية، مع كونه يفهمها بالنص وبالحدس، إن صدر الآلة أبعد من فهمها وأضيق.

وههنا بعد ثلاثة أشياء هي من تمام ما عَرَضنا له في أمر الحاسوب واللغة:

١ـ أن سورية في هذا الباب سباقة متقدمة، مُسَلَّم لها سبقها وتقدمها، ولا سيما عند الجهات التي لم تحرز من النتائج المحسوسة ما أحرزته سورية، لأخذها في سُبُل من العمل كانت سورية أصحَّ تهدياً إلى ماهو أرشد منها وأقوم، وليست هي، ببساطة كما يقال، إلا بناء العمل على أحكام العربية المعروفة الموروثة، على حين لم يصنع آخرون ذلك، وغرموا ـ حين لم يصنعوه ـ المغارم الثقيلة: جهوداً عظيمة، وأوقاتاً ثمينة، وأموالاً طائلة جسيمة.

٢ـ أن انقياد العربية للحاسوب لم يستقر بعد: من وجوه العربية كلها، ومن وجوه الرجاء المعقودة عليها وعليه جميعاً.

٣ـ ومن هذه الوجوه الالتفات إلى (الحاسوب مترجماً) فإذا ما انقاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العمل في هذا الجانب للأمل المعقود عليه فإنه فتح في العلم عظيم، تنبني عليه في الحياة العلمية العربية نتائج عظيمة الخطر .

● أما هذه الفضائيات فإنها:

شَرَكُ العقولِ وفتنةٌ مامثلُها للمطمئنّ وعُقْلَةُ المستوفزِ

استولت على الأنفس، واجتاحت الأوقات، وأقبلت على متلقيها بغوارب الموج في كل ما يخطر له وما لا يخطر له، من كل صالح وطالح، وغث وسمين. وإنما نحن في (عربياتها) خاصة، من الوجه اللغوي الذي نحاوله في هذا المقام. وجملة القول فيه:

أن الجانب اللغوي في بعض هذه الفضائيات يرجع بذوق الكلمة العربية الخالصة وبمادتها وبأسلوبيتها خطوات كثيرة إلى الوراء، مطوياً ذلك منها، أعني من هذه الفضائيات، على مفارقتين بالغتين:

١ـ أن الأصل في كل إرسال تتسع دائرة متلقيه أن يخاطب هذه الدائرة بما يقترب في البيان منها ولا يلتوي عليها، أي أن يخرج من خصوص اللهجة إلى عموم اللغة. وقد كان ينبغي على هذا القياس أن تكون الفصحى المناسبة[٢] هي الأداة اللغوية المشتركة التي لا يعيا بفهمها أحد في بلاد العرب كلها، في كل إرسال يحتمل أن تكون هذه الفصحى أداة بيانه.

٢ـ أن هذه القنوات، باعتمادها العامية أصلاً في التعبير، كأنما تهدم، عَمْدَ

(٢) صحة التركيب هي الأصل في اللغة، وبهذا الاعتبار لاتناقضُ السهولةُ الفصاحة، بل إن من بلاغات البلغاء اقتدار البليغ منهم على الفصيح السهل، وهو الذي كانوا يسمعونه المُطْمِعَ والسهل الممتنع، وأما الألفاظ فليس في أيدي الناس من غريبها اليوم أصلاً ماتخشى غائلته على متلقيه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عَيْن، كل ما اكتسبته الواعية العربية الحديثة في باب تصحيح الكلام، والارتفاع بمستوى بيان المثقف العام المعاصر فضلاً عن العالم المتخصص فوق العاميات المحكية، رفعاً لهذين: المثقف والعالم، إلى آفاق الفكر والعلم المعاصرين.

ضرورات العصر وموقع الفصحى منها:

فهذان ملمحان عظيمان من ملامح العصر، وقد رأيت كيف وقعت الفصحى منهما: اضطراراً إليها في الأول، وإعراضاً عنها – محدوداً بحدوده – في الثاني، وإنما ذلك على حسب الفرق بين سياقين: يُصَرّف أحدَهما العلم، ولا يمتنع أن يتصرف في الآخر الهوى.

ونخلص من بعد إلى العصر نفسه منظوراً إليه نظرة شاملة، نصل فيها غابر المجتمع العربي بحاضره، إبرازاً لجوهر الوجود العربي وتوكيداً له.

ونستل من عناصر هذا الوجود كل ماكانت اللغة أصلاً فيه أو ملمحاً فارقاً من ملامحه.

ونُسَوّغ أنفسَنا الزعمَ – طمأنينةً إلى مايَعُدُّه الناس بدائهَ عامةً لهم – أن كل تسليم بضرورة من ضرورات هذا الجنس العربي يوكد بها نفسه في حومة البقاء هو تسليم ضرورةً بلغته القومية الجامعة، أي بفصحاه: مَلْمحِهِ الفارق، وصورة وجوده الملابسة له.

وقد دُفعنا دفعاً في العبارة عما نحن بسبيله إلى أن نخرج المعاني في غير موضع، مخرج القضايا الجامعة، وإلى مايشبه أن يكون جوامع من القول تحتها تفصيل كثير.

• لو ساغ لأمة من أمم الحضارة أن تتحلل في أمر لغتها شيئاً يكثر أو يقل، لأسباب خفية أو ظاهرة = لم يسغ ذلك للأمة العربية،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يحل لها أن تفعله؛ إذ كانت الضرورات كلها تتوافى إلى حقيقة واحدة، هي أن الفصحى أحد ما يُوائل إليه المجتمع العربي الحديث عارفاً واعياً، في سعيه الحثيث الدائب للحاق بالعصر: إحرازاً لمكتسباته العلمية الطاغية مرة، وتطلعاً إلى أن يشرك الأمم المتقدمة في صنع هذه المكتسبات مرة أخرى.

وذلك أن نقل المصطلح العلمي في شعب الحضارة كلها هو حجر الزاوية في إحراز العصر في لبابه ودقائقه لا في ظواهره وعمومياته، ولا يتهيأ هذا إلا بالعربية الفصحى، سبيلاً مفرداً لا شبهة فيه. ومن أجل هذا كان نقل المصطلح من أَجَلِّ مطالب المجامع العربية منذ نشأت هذه المجامع، ولنا إلى هذا عَوْد.

وضرورات المجتمع العربي إنسانيةٌ وتقنيةٌ باعتبار، وتاريخيةٌ وواقعيةٌ وعلمية باعتبار آخر، بعضُ ذلك ملتبسٌ ببعض متصلٌ به، كما أومأنا إليه آنفاً.

١ـ فأول ذلك أن العربية الفصحى هي الوجه التاريخي الجامع الشامل للحضارة العربية، به تتعرف إلى الحضارات الأخرى، وبه تمتاز منها، وإلى هذه العربية نسبت هذه الحضارة، إذ كانت آثارها بها تنطق، وإذ كان قد أسهم فيها من الأعراق ما لا يستطيع أن ينتسب إلى قول القائل:

طوبى لفرعيك من هنا وهنا طوبى لأعراقك التي تَشِجُ

وأية أعراق واشجة بين رجل من الصغانيان وعربي خالص من عدنان أو قحطان؟ ألم يصنف أبو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني الجوامع العظيمة في اللغة وفي غيرها من علوم العرب والإسلام؟ ثم لم يُعَدَّ ذلك إلا ميراثاً للعرب إليهم ينسب وبهم يعرف، إذ كانوا هم معدنه والأصل فيه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ـ وبهذه اللغة تحول العرب والعروبة من الجنسية العرقية إلى الجنسية اللغوية، واستقرت عروبة اللسان أصلاً في عروبة الإنسان.

٣ـ وبالقياس إلى العربي المعاصر فإن تراثه الحضاري الناطق بالفصحى، على اختلاف آفاقه وعلومه وفنونه = مخزون ضخم يرجع إليه حين يشاء كيف يشاء.

٤ـ وإنما تهيأ له ذلك بالديمومة الثقافية والحضارية العربية، بسبب من الديمومة التاريخية التي للفصحى، والتي ليست للغة أخرى غيرها من لغات الأرض.

٥ـ وأيضاً فإن الرصيد اللغوي العربي نفسه، المتكون عبر قرون حضارية كثيرة متطاوَلة = حامل ضخم للمفهومات والقيم، وهو وحده قيمة حضارية كبيرة للعربي المعاصر.

فبهذا كله يستمسك العربي، وبه يتعين موضعه من التاريخ.

● ثم إذا كانت هذه اللغة الفصحى ملمحاً ثرياً وفارقاً للجماعة العربية فهي إذن ملمح ثري وفارق للفرد العربي، غير أن ههنا فيما يتعلق بالفرد أشياء يتعين بها أخذه في لغة ذات ثراء أولاً، ويتعين نهج تحصيله وممارسته لها ثانياً:

١ـ أثبت البحث الحديث وجود فوارق محسوسة في أداء التلاميذ العقلي والعلمي يطرد إيجاباً وسلباً مع البيئات الاجتماعية التي قدم منها هؤلاء التلاميذ، ملحوظاً أن فروق ذلك كانت فروقاً لغوية خالصة، تنعكس إدراكاً عقلياً وعلمياً. وبعبارة جامعة فإن الغنى اللغوي يعني غنىً عقلياً تترتب عليه نتائج علمية بعيدة الأثر، رصد هذا البحثُ العلمي الحديث وقرره .

٢ـ وهو ثابت أيضاً أن الطفل يكتسب لغته بطريق الحكاية لما يسمع،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقدرات الأطفال في هذا قدرات غير محدودة، يرجع معها أشدُّ شيءٍ فيما يحكيه كأيسر شيء، ولا يحتاج هذا إلى شاهد يشهد له، لغات الأرض كلها شديدها وميسورها شواهد له. وعلى أساس من هذه الحقيقة الراسخة والبادهة المشهودة في آن يستطيع المربون أن ينشئوا الطفل في أصح سياق لغوي وأغناه، وأعوده بالنفع عليه في حاضره ومستقبله. يصنعون ذلك تعليماً قاصداً محكماً، وبرامج إعلامية موجهة رشيدة.

٣ـ أداء مكتسب اللغة مبدعاً يتعلق (باستحضاره) لما اكتسبه، وهذا موصول (بحضوره) فيه، وهذا مفضٍ ضرورة إلى أن (تَوَحُّدَ) السياق اللغوي الذي يتقلب فيه مكتسب اللغة لا (ازدواجيته) أعون له على الأداء المبدع من وجوه الإبداع كلها. فإذا كان الإبداع وجه الحضارة الحي فإن مما يعين عليه إذن أن تخرج الأمة من الازدواجية باتجاه التوحد، أي باتجاه الفصحى الواحدة المشتركة؛ معونةً لمبدعيها على إبداعاتهم.

فهذه وجوه يتعين بها على الفرد نوع اللغة التي يأخذ نفسَهُ باكتسابها، أو تضعه الجماعة موضع المكتسب لها، ويتعين عليه أسلوب تحصيله وممارسته، وفي سياقنا هنا فإن هذه اللغة الفصحى لا محالة أولاً، وهي الفصحى البريئة من مزاحمة اللكنات المختلفة على قلب المتعلم ولسانه أخيراً.

● ومن تمام القول في اللغة والإنسان أن نقرر هنا أن اللغة ميراث جماعي، يسهم فيه الفرد إلا أنه لا يتهيأ له صناعته وحده. وهذه ناحية تترتب عليها نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بوضع المصطلح، على ما نرجو أن نبينه فيما يستقبل.

والعرب في لحظتهم التاريخية الراهنة، وما تشتمل عليه من جسيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التحديات مضطرون إلى جوهر تاريخي واحد يستمسكون به في الحلبة العالمية، بإزاء التكتلات العملاقة الكبرى. وقد تقدم أن وجه هذا الجوهر هو هذه الفصحى وحدها.

وفي العلم وأدواته، ومنها الحاسوب وما تولد منه من شبكات الاتصال العالمية، رأينا أن العربية، في السياق العربي على الأقل، قد استقرت، وهي تستقر على نحو متزايد، في هذه الأدوات.

نخلص من هذا كله:

١- إلى أن الفصحى مطلب قومي بالاعتبارات كلها، تعين المناهج التربوية المختلفة المواطن على تحصيله في مراحل دراسته المختلفة.

٢- يعينها الإعلام ويكمل رسالتها، بحضوره المتزايد في حياة الفرد وعقله ووجدانه، وباستيعابه الشامل للمجتمع كله، لا بقطاع المتعلمين فيه.

٣- فإذا ما تكامل ذلك رجا المرء أن تنمو الحاسة اللغوية الصحيحة نماءها المثمر، وحينذاك يتهيأ للأمة بأسرها، أو لطبقات كثيرة فيها، أن تسهم في وضع المصطلح، الذي هو أحد مفاتيح العلم المعاصر، إسهاماً يخفف العبء عن المجامع العربية ويتممه، وهل تطيق ما تضعه أمم متحضرة وضعاً غلاباً كثيراً غاية الكثرة إلا أمم مثلها؟

٤- وذلك كله إن صح، وهو صحيح فيما نرجو، مُفْضٍ لا محالة إلى أن **الفصحى هي ضرورة العصر**، إذ كانت هي هذا الإنسان العربي المعاصر نفسه، من وجوهه الحية الباقية كلها.

* *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net